﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾

[غافر: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ خبرِ موسى مع فرعون وقومِه بعد إجماله

بعد أن أجمل البيانُ القرآنيُّ في الآيتين السّابقتين خبرَ موسى مع فرعونَ وهامان وقارون وقومِهم؛ ناسبَ أن يشرع في تفاصيله، جَرْيًا على عادة السّورة الكريمة في البيان والتّفصيل، تسليَةً وتثبيًا للرّسول ﷺ وأتباعِه، وتحذيرًا لمشركي مكّة من الاستمرار على كفرهم، وتهديدًا بإنزال العذاب بهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾: (حيي) أصْلانِ؛ أحَدُهُما: خِلافُ المَوْتِ، كالحَياة والحَيوان، وهُما ضِدُّ المَوْتِ والمَوتانِ[2]. والمعنى المحوريّ: امتلاءٌ بالطّراءة التي لها حِدّةٌ ما، أو فاعليّةٌ تتمثّل في رهافة الحِسّ وفي النّمو حركةً أوِ امتدادًا، وكلُّ ما في القرآن من التّركيب من الحياة: ضِدّ الموت، ومنه: الاستحياء، أي: إبقاءُ الشّخص حيًّا وعدمُ قتلِه، قال: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49][3]، وهو المعنى المُراد في الآية.

2) ﴿كَيۡدُ﴾: (كيد) أصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، قالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فأنْتَ تَكيدُهُ. هَذا هو الأصْلُ في الباب[4]، ثُمَّ يُسَمّونَ المَكْرَ كَيْدًا، تقول: كاد يكيد كَيْدًا ومَكيدةً. قال تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حي).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: 5]؛ أيْ: فيحتالوا احتيالًا، وقال: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾ [طه: 60] أي: حيلتَهُ[1]، وهو المراد في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ الكريمة أنَّ نبيَّ الله موسى ﷺ واصَلَ دعوتَه لفرعونَ وقومِه على الرّغم من أنّهم اتّهموه بالسّحر والكَذِب، وتوَضِّح أنّه حين خاطبهم بما أمره اللّهُ أن يخاطبهم به، وجابههم بالحقّ الذي زوَّده اللّهُ تعالى به، ما كان منهم إلّا أن قالوا مُتوعِّدين ومُهدِّدين: اقتلوا الذّكورَ من أبناء الذين آمنوا مع موسى، واتركوا الإناثَ بدون قتلٍ لخِدمتِكم؛ ليكون ذلك أبلغَ في إذلالهم؛ فإنّ بقاء النّساء بدون رجالٍ فتنةٌ كبيرة، وذُلٌّ عظيم، كما توضّح الآيةُ أنّ كيدَ الكافرين ومؤامراتِهم ضدَّ أنبياءِ الله ورسلِه لن يوقِفَ دعوةَ الحقّ، ولن يَضرَّ أحدًا من المؤمنين السّائرين في طريقه أدنى ضَرر[2].

مؤامراتٌ وتهديداتٌ لن تنجح في الإضرار بدعوة الحقّ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هي فاء الاستئناف، الدّالّة على أنّ موسى ﷺ واصل دعوته لفرعونَ وهامانَ وقارونَ وأتباعِهم، "غيرَ مُكترث بقولهم: ﴿سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾"[3]. ويمكن أن تكون الفاء للعطف والتّرتيب، والمعنى: إنّ قولهم عن موسى: إنّه ساحر كذّاب ترتَّب عليه أن جاءهم بالبيّنات الدّالّة على صدقه فيما يُبلِّغُه عن الله تعالى.

الأنبياء لا يكترثون بتهديدات المشركين ومؤامراتهم

معنى (لَمّا) وأثر التّعبير بها:

(لَمّا) في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هي الظّرفيّة الحينيّة،

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 399.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 12/ 278.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 315.

التي ترجع بالمُتلقّين إلى الزّمان الذي جاء فيه موسى فرعونَ وقومَه بالبيّنات، أملًا في أن يُصدِّقوه، ويَتَّبعوا النّورَ الذي أُنزل معه، ليَنْجوا من عذاب الله وسَخَطه؛ لِما لاستحضار الصّورة من أثرٍ داعم للرّسول والمؤمنين معه، مُنذرٍ مُهدّدٍ للكافرين الذين يفعلون مع رسول الله فِعلَ فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأتباعِهم مع نبيّ الله موسى، حيثُ يستلهمون منه الصّبرَ والثّباتَ، أُسوةً بأتباع الرّسالات، ويزدادون إيمانًا ويقينًا بأنّ ما امتُحِنوا به لن يقضيَ بهم إلى خُذلان أو وهْن، أو يجعلَهم ينفضّون عن نبيّهم؛ فإنّهم خير الأُمم، كما أنّ نبيّهم ﷺ خيرُ الأنبياء.

استحضار المشاهد الماضية يدعَمُ أهلَ الحق ويُحذِّر أهلَ الباطل

بلاغةُ التّعبير بأسلوب الشّرط:

ويمكن في (لَمّا) أن تكون شرطيّةً غيرَ جازمة، وقوله: ﴿جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هو فعل الشّرط، وجملة: ﴿قَالُواْ﴾ جوابُه، وأوثِر التّعبيرُ عمّا حدث من فرعونَ وقومِه عندما جاءهم موسى بالبيّنات بأسلوب الشّرط؛ لِما يمتاز به من بيان المعنى وإيضاحه، وإثارةِ المُتلقّي وتنبيهِه إلى متابعة الأحداث، والتقاطِ الدّرسِ المناسب لحاله، والعبرةِ المُؤثّرة في أمره؛ لتكوُّنِه من جملتين، ترتبطُ الثّانيةُ منهما بالأولى ارتباطَ المُسبّب بالسّبب، ما من شأنه أن يدفع المشركين إلى العُدول عمّا هم فيه من سَيْرٍ على خُطى فرعونَ وشركائِه؛ لئلّا ينزلَ بهم مثلُ العذاب الذي أصابهم.

إثارة المُتلقّي وتنبيهُه لمتابعة الحَدَث والتقاطِ الدّرس والعِبرة

دلالة التّعبير بفعل المَجيء:

قوله: ﴿جَآءَهُم﴾ جملةٌ مكوّنة من فعل وفاعل مستترٍ يَرجع إلى نبيّ الله موسى، وضميرٍ غائبٍ في محلّ نصبٍ مفعول به، يرجع إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأتباعِهم. وآثَر البيانُ الكريم التّعبير بالفعل: ﴿جَآءَهُم﴾ دون (أتاهم)؛ لما في المجيء من صعوبة[1] تدلُّ

مجيء موسى بالبيّنات كان ذا خطر وشأن؛ لإقامته الحُجّة على فرعونَ وقومِه

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (جاء).

على أنّه كان مجيئًا ذا خَطَرٍ وشأنٍ وهيبةٍ؛ لإلزامه مَن يخاطبُهم الدّليلَ على صدقِه، والإيمانَ بما أُرسِل به، بسبب قوّة الأدلّة التي أتى بها، وشدّةِ ظهورِ البراهين التي ساقها. والفعل ﴿جَآءَهُم﴾ أيضًا مُتضمِّنٌ الإخبارَ بأنَّه رسولٌ من ربِّ العالَمين، قد جاء ببيّنةٍ وبُرهان وآيةٍ وسلطان، فإذا سُئِل عن آيته أظهرَها؛ وهي المدلولُ عليها هنا ضمنَ بلاغِه الدّعاءَ إلى الله وحدَه بقوله جلّ وعزّ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الابتداء، والمعنى: أنّ الأدلّة التي جاء بها موسى من عند الله تعالى ابتداءً، وليست من عند أحدٍ غيرِه سبحانه.

فائدة التّعبيرِ بالظّرفيّة في ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بمحذوف في محلّ نصب حال، وفائدةُ كون الحقّ من عند الله: الدّلالةُ على "أنَّهُ حُقٌّ خارقٌ لِلْعادَةِ لا يكونُ إلّا مِنْ تَسْخيرِ الله وتَأْييدِه، وهو آياتُ نُبوَّتِهِ التِّسْعُ"[1].

الحقُّ الخارق للعادة لا يكون إلّا من تسخير الله وتأييده

نُكْتَةُ التّرتيب بين أشباه الجُمَل:

قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بـ ﴿جَآءَهُم﴾، وقولُه: ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال كما سبق بيانه، ووجهُ تقديم قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ على ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ أنَّ الاهتمامَ منصبٌّ على بيان كونِ المجيء مصحوبًا بأدلّةٍ وبراهينَ حقيقيّة لا يشوبُها شيءٌ من الكذب أوِ الادِّعاء.

التّقديم في الغالب يكون للدّلالة على الاهتمام بالمقدَّم

مرجع الضّمير في ﴿قَالُواْ﴾، ودلالتُه:

سبق القول بأنّ جملة: ﴿قَالُواْ﴾ هي جواب (لَمّا) الشّرطيّة الحينيّة، والضّميرُ المرفوع فيها يرجع إلى "فرعونَ ومَن معه، وقيل:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 122.

إنّ قارون لم يصْدُر منه هذه المقالة لكنّهم غلبوا عليه"[1]، ويرى ابنُ عاشور أنّ الضّمير المرفوع فيه "عائدٌ إلَى غَيْرِ مَذْكورٍ في اللَّفْظِ؛ لِأَنَّهُ ضَميرُ جَمعٍ يدُلُّ عَلَيْهِ المَقامُ، وهُم أهْلُ مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ الَّذينَ لا يخْلو عَنْهُم مَجْلِسُ الملكِ في مِثْلِ هَذِهِ الحَوادِثِ العَظيمَةِ ... ، وإنَّما أُبْهِمَ القائِلونَ لِعَدَمِ تَعَلُّقِ الغَرَضِ بِعِلْمِهِ، ففِعْلُ ﴿قَالُواْ﴾ بمَنْزِلَةِ المَبْنِيِّ للنّائِبِ أوْ بمَنْزِلَةِ: (قالَ قائِلٌ)"[2]، وأيًّا كان القائلُ ففي إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة دلالةٌ على أنّ مَنْ لم يأمُر بالقتل بلسان المقال أمَرَ به بلسان الحال، إذ رَضيَ به القومُ أجمعون، ورأوه مناسبًا.

مَـنْ لـم يـأمـر بالقتل بلسان المقال، أمـرَ به بلسان الحال

دلالة الأمر في ﴿ٱقْتُلُوٓاْ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ﴾ فعلُ أمر، والضّمير المرفوع فيه عائد إلى ملأ فرعونَ وجنودِه باعتبار أنَّ الأمر بالقتل صادرٌ منه إليهم، ويمكن أن يعود الضّمير إلى فرعون باعتبار أنَّ القائل هم الملأ الذين حضروا مجلسَه، خاطبوه به "خِطابَ تَعْظيم، مِثْلَ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المُؤمنون: 99]"[3]، وأيًّا كان مرجعُ الضّمير فالغَرضُ من الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع نبيّ اللّه موسى تهديدُه وزَجْرُه؛ ليتراجعَ عن ادّعاء الرّسالة، وفي ذِكْره أيضًا تشنيعٌ بفرعون وقومِه، وتقبيحٌ لصنيعهم، ودلالةٌ على بلوغهم في الشّدّة والفجور مبلغًا فاقَ كفّار مكّة، ومع ذلك أخذهمُ اللّهُ تعالى أخذَ عزيزٍ مقتدر.

يلجأ المجرمون إلـى التّهديد والـوعـيـد؛ ظـنًـا منـهـم أن ذلـك سيؤثّر في أصحاب الرّسالة

نُكْتَةُ جمعِ ﴿أَبْنَآءَ﴾:

في قوله: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ جيء بمعمول فعلِ القتل: ﴿أَبْنَآءَ﴾ جمعًا؛ لرغبة القائلين في أن يَعُمَّ القتلُ كلَّ أبناءِ الذين آمنوا مع نبيّ اللّه موسى من الذّكور، من غير استثناء لأحدٍ أيًّا كان، والمعنى: "خُصّوهم بذلك واتركوا مَنْ عداهم؛ لعلّهم

قتلُ الذكورِ أشدُّ فجيعةً، وأكثرُ مهانةً وإذلالًا، وأقطعُ للنسل

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 123.

يُكَذِّبونَه"[1]، وخُصَّ الذُّكورُ بالقتل لأنَّ قتلَهم أشدُّ فجيعةً، وأكثرُ مهانةً وإذلالًا، وأقْطَعُ للنّسل، "ولِئَلّا ينْشَؤوا عَلَى دينِ موسَى فيقْوى بهِم، وتستمرَ دعوتُه من بعده"[2].

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾:

عبَّر القائلون عن المضاف إليه باسم الموصول وصلته في قولهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾؛ ليتوصَّلوا من خلالهما إلى أنَّ السّبب في قتل الأبناء هو معاقبةُ آبائهم، والانتقامُ منهم؛ لأنّهم آمنوا بموسى واتّبعوه، فيكون ذلك رادعًا لكلِّ من تُسوِّل له نفسُه أن يفعل فعلَهم، وينهجَ نهجَهم، وفيه من تفظيع الجُرم وتقبيحِه ما لا يخفى.

من عادة المجرمين ترهيبُ النّاس منَ الاستجابة لـلأنبياء والمُصلحين

نُكْتَةُ التّعبير بالفعل الماضي، وحَذْفِ معمولِه:

عبّر القائلون بالفعل الماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لدلالته بزمانه وبنائه على تحقُّقِ إيمانِهم وحصولِه حصولًا أكيدًا، وبلوغِهم فيه مبلغًا كبيرًا، وفي حَذْف متعلّقِه دلالةٌ على أنّهم آمنوا بكلّ ما جاءهم به موسى، واتّبعوه في سائر ما يدعوهم إليه.

لا يكون الإيمانُ حقيقيًّا إلّا إذا كان شاملًا

فائدةُ ذِكْرِ شِبهِ الجملة ﴿مَعَهُۥ﴾:

﴿مَعَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ظرفُ مكانٍ متعلّق بالفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾، أوثِر التّعبيرُ به دونَ غيره؛ لِما يفيده من المَعيّة والمصاحبة، الدّالَّة على أنَّ هؤلاء المؤمنين لا يتوقّفون عند الإيمان النّظري، وإنّما يتعدَّونَه إلى الإيمان العمليّ، المتمثّلِ في المعيّة والصّحبة والنّصرة، ما من شأنه أنْ يُقوّي شوكةَ موسى، ويساعدَ في انتشار دعوته.

الإيمانُ الحقيقيُّ يستلزم المعيَّة والمؤازرة والنُّصرة

فائدة عطف قوله: ﴿وَٱسْتَحْيُواْ﴾:

عَطَف القائلون الأمرَ باستحياء النّساء على الأمر بقتل الأبناء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 50.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 506، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 249، بتصرف.

بالواو التي تُفيد المصاحبة؛ للإشارة إلى ضرورة حصول الأمرَين معًا، وألّا يتأخَّرَ استحياءُ النّساء "للخدمة في البيوت والاسترقاق"[1] عن قتل الأبناء، لأنَّ حصولَهما معًا أشدُّ وأنكى من حصولهما متفرِّقين أو متعاقبَين، كما أنَّه أكثرُ إلهاءً، وأقوى صرفًا وزجرًا لموسى عن دعوى الرّسالة، وللنّاس عن الإيمان به.

حصولُ قتلِ الأبناء واستحياء النّساء في آنٍ واحدٍ أشدُّ وأنكى من حصولهما متفرقَين

دلالة الأمر ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾:

الأمرُ باستحياء النّساء يعني: إبقاءَهنّ على قيد الحياة وعدمَ قتلِهُنّ مثلَ الرّجال، لِما لإبقائِهنّ على قيد الحياة من فوائدَ لفرعون وقومِه، أهمُّها: استخدامُهُنّ في البيوت، ومعاشرتُهُنّ معاشرةَ الأزواجِ. وأضرارٍ تُؤذي موسى ومَنْ آمن به، منها: زَجْرُهم وإلهاؤُهم عن دعوتهم، والإبلاغُ في إذلالهم وإهانتهم.

استحياءُ النّساء واسترقاقُهُنّ إذلالٌ للرّجال وتشتيتٌ لفكرهم

بلاغة المقابلة في الآية:

فيما يَحكيه النّظمُ من قول المجرمين مقابلةٌ بين معنيين في قولهم: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، ومعنَيين آخَرَين في قولهم: ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾، وهي مقابلةٌ تُبْرِز مدى الكيدِ والإجرامِ الذي بلغه فرعونُ وأتباعُه، ومدى الشّدّةِ والقوّة التي تفوَّقوا فيها على غيرهم عبر العصورِ والأزمان، إذ لم يفعل ذلك أحدٌ ممّن كانوا قبلهم، ولا أحدٌ ممّن جاؤوا بعدَهم، ومع ذلك أبطل اللّهُ كيدَهم وأضلَّ سعيهم.

بَلَغَ فرعونُ وقومُه في الشّدّة والإجرام ما لم يبلغه أحدٌ قبلَهم ولا بعدَهم

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا كَيۡدُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ للحال، والجملةُ بعدَها حاليّةٌ، جيء بها لبيان "أنَّ جَميعَ ما يسْعَوْنَ فيهِ مِنْ مُكايدَةِ موسَى ومُكايدَةِ مَنْ آمَنَ مَعَهُ، يبْطُلُ"[2]. ويمكن أن تكون

مَن أبطَلَ كيدَ فرعونَ قادرٌ على إبطالِ كيدِ غيرِهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 249.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 506.

الواو اعتراضيّةً، والجملةُ بعدَها اعتراضٌ "جيءَ به في تضاعيف ما حُكيَ عنهم من الأباطيل؛ للمسارعة إلى بيان بُطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد واضمحلالِه بالمَرّة"[1]. وأيًّا كانت الواو والجملةُ التي تليها ففي التّعبير دلالةٌ على بُطلان ما يسعى فيه كفّارُ قريشٍ من كيدٍ لرسول الله ﷺ والمؤمنين معه، كما بَطَلَ كيدُ فرعونَ وقومِه لموسى وأتباعِه.

بلاغة القَصْر ونَوْعِه وغَرضِه:

في جملة: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ قُصِرَ كيدُ الكافرين على كونه في ضلال، قَصْرَ موصوفٍ على صفة، وهو قَصْرٌ حقيقيّ بطريق النّفي والاستثناء، عبَّر به النّظمُ الكريم للإبلاغ في تأكيد بُطلان كيدِ الكافرين، مهما بلغ من المكر والحيلة، وتحقيقِ عدمِ جدواه في الإضرار بالمؤمنين بأيِّ صورة من الصّور.

تأكيد بُطلانِ كيدِ الكافرين مهما بلغ من المكر والحيلة

وأوثِر النّفي والاستثناء طريقًا للقَصْر؛ لأنَّه يمتاز عن غيره من الطّرق بأنّه يُستعمل عندما يكون الكلامُ موجَّهًا إلى مُخاطَبٍ مُنكرٍ للأمر أو شاكٍّ فيه، فيستلزمُ ذلك تأكيدّ المعنى من خلال نفي ثبوتِ أيِّ صفةٍ من الصّفات لكيد الكفّار ومكرِهم، ثمّ قَصْرُه على صفة الضّلال والفشل دونَ غيرِها من الصّفات؛ ليَطمئنّ المؤمنون ويمضوا في طريق إيمانهم، غيرَ عابئين بما يُدبَّر لهم، وليزدادَ الكافرون إحباطًا وفشلًا في الإضرار بالرّسل وأتباعِهم.

كيدُ الكفّار لا يُساوي شيئًا أمامَ كيدِ اللهِ القادرِ على إبطالِ كلّ كيدٍ

نُكْتَةُ إظهارِهم بوصف الكفر:

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وما كيد فرعون وقومِه إلّا في ضلال)، أو يقال: (وما كيدُهم إلّا في ضلال)، ولكنَّ البيان القرآنيَّ عدلَ عن ذلك إلى التّعبير عنهم بوصف الكافرين، فقال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ ليشملَ التّعبيرُ فرعونَ وقومَه، وكلَّ مَنْ يكيد

ذَمُّ الكائدين، والتّشنيعُ بصنيعهم، والإشعارُ بعِلّة إبطالِ كيدهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316.

مثلَهم من الكافرين في مختلف العصور والأزمان[1]، يُزاد على ذلك أنّ "التّعبير بوصف الكفر فيه ذَمٌّ لهم، وتشنيعٌ بصنيعهم، وإشعارٌ بالعِلّة والسّبب في إبطال كيدهم"[2].

دلالةُ إضافة الكيد إلى الكافرين:

كيدُ الكافرين كلُّه في ضلالٍ ونهايتُه الفشلُ

في إضافة الكيد إلى الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الكيد الذي يكيده الكافرون فقط هو المقصور على الضّلال، أمّا كيدُ المؤمنين فهو - إن وُجِد - فليس في ضلال ولا ضياع، لأنَّ كيدَهم ليس ككيد الكافرين.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مهما كَبُر الكيدُ أو تضاءَل؛ فاللهُ تعالى كفيلٌ بإبطاله

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يمكن أن تكون للعهد الذّكريّ، والمعنى: وما كيدُ فرعونَ وهامانَ وقارونَ وقومِهما إلّا في ضلال. ويمكن أن تكون لتعريف الجنس، فيشمل جنسَ الكافرين إلى أن تقومَ السّاعةُ، ويدخل فيه المذكورون دخولًا أوليًّا بُرهانيًّا[3]. وأيًّا كانت اللّام ففي التّعبير دلالةٌ على أنَّ كيد مَن هم أقلُّ شدّةً وقوّةً من فرعونَ وهامانَ وقارونَ سيكون أيضًا في ضلال وضياع، ولن يَضُرَّ الرّسولَ والمؤمنين في شيء.

مزيّةُ التّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾:

التّشويقُ إلى معرفة حقيقة كيدِ الكافرين، لتثبت في نفوس المتلقين

التّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ يمنح الأسلوبَ مزيّةَ الإثارةِ والتّشويق إلى الخبر الذي يأتي بعدَها، والموضِّحِ حقيقةَ كيدِ الكافرين، وأنّه لن يكون شيء غيرَ الضّلال والسّراب، ولن يترتّب عليه أدنى ضرر بالمؤمنين، فإذا ورد بعد تطلّع النّفوس إليه، ثبت فيها وتمكّن منها؛ لأنَّ المعنى إذا أُلقيَ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 50.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316، بتصرف.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316.

سبيل التّشويق، تطلّعت النّفسُ إلى معرفته على سبيل التّصريح، فتتوجَّهُ إلى ما يَرِدُ بعدَ ذلك، فإذا أُلقيَ تمكّنَ فيها فضلَ تمكُّنٍ، وكان شعورُها به أتمّ، وفي إيثار هذه الطّريقة الأسلوبيّةِ دلالةٌ على أهميّة المعنى المرادِ ترسيخُه.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾:

كيدُ الكافرين محاصَرٌ حصار المَظروف في الظّرف

في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ، شُبّه فيها الضّلالُ بالحُفرة العميقة التي سقط فيها كيدُ الكافرين، وأصبح محاصرًا حصارَ المظروفِ في الظّرف، ما يعني أنّه فَقَدَ التّأثيرَ والإضرارَ بأيِّ أحدٍ بصفة عامّة، وبالمؤمنين بصفة خاصّة، ثمّ حُذِفَ المُشَبّهُ به بعدَ تناسي التّشبيه، ورُمِزَ إليه بشيء من لوازمه وهو الظّرفيّة، على سبيل الاستعارة المَكنيّة التي تَبُثُّ الخيبةَ والخُسرانَ في نفوس الكافرين، وتُحَقِّقُ الأمنِ والاطمئنانِ للرُّسل والمؤمنين.

نُكْتَةُ تنكير ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

فَشَلُ الكافرين في الإضرار بالمؤمنين لا يَعْرِف أحدٌ مداه ولا مُنتهاه

جيء بالمجرور ﴿ضَلَٰلٍ﴾ نكرةً؛ لما يُفيدُه التّنكير من التّعظيم والتّفخيم، والإشارةِ إلى أنّه ضلالٌ وفشلٌ لا تُحيط به العبارةُ، ولا يعرف أحدٌ مداه ولا منتهاه، ما يعني أنّه ضلالٌ لا أملَ معه في تحقيق المُراد، وإيقاعِ الضّرِّ بالمؤمنين الأبرار، لما فيه من "مجانبةٍ للسّداد الموّصِل إلى الظّفر والفَوز؛ لأنّه ما أفادَهم أوّلًا في الحذر من موسى ﷺ، ولا آخِرًا في صدِّ من آمن به مرادهم، بل كان فيه تبارُهم وهلاكُهم، وكذا أفعالُ الفجرةِ مع أولياء الله، ما حَفَر أحدٌ منهم لأحدٍ منهم حُفرةَ مَكْرٍ إلّا أكبَّه اللّهُ فيها"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 50.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»